الفصل الثامن

التربية والتغير الثقافي والاجتماعي

سنعرض في هذا الفصل إلى الكلام عن التغير الثقافي والاجتماعي وعلاقته بالتربية

التغير الثقافي :

أشرنا إلى أن الثقافة ثابتة ودائمة التغير في نفس الوقت . فهي ثابتة بالنسبة لبعض عناصرها مثل اللغة والقانون . إذ تستمر دون تعديل كبير لمدة طويلة من الزمن . ومتغيرة بمعنى أن جميع عناصرها تخضع لتحول مستمر تدريجي غير واضح . ويشمل التغير الثقافي ثلاث عمليات أساسية يعرفها علماء الإنسان بأنها : عملية التأصيل ، وعملية الانتشار ، وعملية إعادة التفسير . فعميلة التأصيل تعني اكتشاف أو اختراع عناصر أصيلة في الثقافة . ويعني الانتشار استعارة عناصر جديدة من ثقافات أخرى مثل تبني التربويين للطرق الجديدة في البلاد الأخرى . أما إعادة التفسير فتعني تحويرعنصر قائم لمواجهة الظروف الجديدة مثل تكييف المناهج الدراسية للتطورات العلمية الجديدة.

ولا تستجيب ثقافة ما بشكل كامل لأي تغيير مهما كانت أهميته إن لم تكن ثقافة متماسكة إلى حد بعيد . إذ تؤثر بعض النواحي الثقافية الأساسية ، إن عاجلا أو آجلا ، في العناصر الأخرى . وإن كان ذلك لايعني التأثير المتساوي والمباشر .

أما مفهوم التخلف الثقافي فيعني اتجاه في بعض جوانب الثقافية للتغير ببطء أكثر من غيرها. ولعل أوضح مثال للتخلف الثقافي في العالم الغربي هو عدم مسايرة التقدم التكنولوجي للقيم الاجتماعية ، بمعني أن التقدم في الجوانب المادية أسبق منه في الجوانب المعنوية للثقافة.، وهو ما يسميه " أوجبورن " Ogburn بالتخلف الثقافي . وبالرغم من الافتراض التقليدي لبعض علماء الإنسان بوجود فاصل واضح بين تكنولوجيا المجتمع وبين قيمه ، إلا أن التكنولوجيا في الحقيقة تحتويها القيم، إذ ترتبط الأساليب والعمليات التكنولوجية الجديدة من خلال وظائفها بأنماط السلوك التي يرتضيها المجتمع . والسيارة مثال على قيم

الحراك الاجتماعي والملكية الخاصة وحب السرعة . ومقياس الحرارة والساعة تدلان على الاعتقاد بضرورة امكانية قياس الطبيعة ، وأن الحياة تحكمها قوانين ثابتة ويمكن معرفتها ، وأن ما يمكن ملاحظته وتكراره يعتبر من الأشياء الهامة .

وهكذا يتراءى لنا نظامان من القيم الثقافية التي قد تتفق معا أو لا تتفق . أحدهما تغذيه المبتكرات التكنولوجية والآخر تغذيه محصلة القيم المستقرة . ولايعتبر الثاني دائما من المبتكرات التكنولوجية ، وإن كان صادرا عن تلك المبتكرات في الماضي . وإذا كانت القيم التي يعبر عنها التغير التكنولوجي تتمشى مع القيم المستقرة ، فإن الثقافة ستتكيف مع التغيرات بسهولة تامة مهما كانت سرعة هذا التغير . ولهذا فإن التغيرات التكنولوجية ليست هي المتسببة في الخلل الثقافي ، وإنما السبب هو ما يشمل هذا التغير من قيم جديدة متصارعة .

وكلما زاد تماسك الثقافة إزداد تداخل وتماسك تكنولوجيتها مع قيمها . وتظهر لنا في الأزمنة الأولى في المجتمعات قيما ثقافية متمثلة في التكنولوجيا التي يطبقها المجتمع . ومن أمثلة ذلك أن الزراعة عند هنود مايا Maya ليست فقط وسيلة لتوفير الغذاء ، ولكنها طريقة لعبادة الآلهة . ويبنى الهندي قبل بذر الحبوب معبداً في الحقل حيث يؤدي فيه الصلاة . ويصبح الحقل نوعا من أنواع المعابد يحظر تدنيسه بلغو الحديث . وتصبح الزراعة نوعا من العقد الدائم بين الآلهة والناس تهب بمقتضاه السماء الناس ثمار الأرض مقابل الصلاة والقرابين . ولاينطبق ذلك على خط التجميع في الإنتاج الحديث ، إذ يتم في ظله رفض واضح لكثير من القيم الثقافية وأهمها الإيمان بأن الفرد هو هدف في ذاته . ففي المصنع الحديث نجد أن العامل قطعة يمكن استبدالها ، ووسيلة لغاية هي الانتاج .

الواقع أن التغير الثقافي يحدث نتيجة عوامل كثيرة في مقدمتها سرعة الانتشار الثقافي نظرا للتقدم الهائل في وسائل الاتصال بين العالم . يضاف إلى ذلك تزايد انفتاح المجتمعات بعضها على بعض وتزايد الاعتماد المتبادل للشعوب في سعيها الحثيث نحو النمو والتقدم . وتساعد وسائل التكنولوجيا المادية الحديثة على إحداث تغييرات اجتماعية بعيدة المدى . كما أن المخترعات الحديثة أيضا لاتقل أهمية في ذلك . ويرتبط الكلام عن المخترعات بالكلام عن

المخترعين والمبتكرين باعتبارهم صناع التقدم .

إن الاكتشاف والاختراع هما المنطلقان الواضحان لأية دراسة للنمو والتغير الثقافي . إذ أنه لايمكن إضافة عناصر جديدة للمحتوى الكلي لثقافة الإنسان إلا عن طريق هاتين العمليتين . ويميز " رالف لنتون " بين مفهوم كل من الاكتشاف والاختراع فيقول إن الاكتشاف إضافة للمعرفة في حين أن الاختراع هو تطبيق جديد للمعرفة . ويضرب مثلا على ذلك بطفل يشد لأول مرة ذيل قطة فتخدشه فيتعلم الطفل من ذلك أن القطة تخدش إذا شد ذيلها . هذه المعرفة الجديدة تمثل اكتشافا بالنسبة للطفل . أما إذا حدث بعد ذلك أن الطفل رأى شخصا آخر يحمل قطة وأراد أن تخدش القطة هذا الشخص فيقوم بشد ذيلها فتخدش القطة حاملها ، عندئذ يكون ذلك اختراعا بالنسبة للطفل لأنه طبق المعرفة التي سبق له أن تعلمها في تحقيق هدف معين (لنتون : ص ٤٠٤) .

ويمثل المخترعون طلائع التقدم الثقافي الذين استطاعوا أن يدركوا قبل غيرهم الاحتياجات الثقافية لمجتمعهم . وحاولوا إيجاد حلول لها . بيد أن محتوى الثقافة التي يعمل فيها المخترع تفرض من جانبها دائما حدوداً على ممارسة المخترع لقدراته الإبداعية . وهذا لاينطبق على المخترعات الآلية فحسب بل على الاختراعات في جميع الميادين الأخرى أيضا . فعباقرة الرياضيات على سبيل المثال لايستطيعون مواصلة السير إلا من النقطة التي بلغتها المعرفة الرياضية في ثقافاتهم . ولو ولد اينشتاين في قبيلة بدائية انحصرت معرفتها الرياضية في العد من واحد إلى ثلاثة لما كان باستطاعته كما يبدو أن يتوصل إلى حقائق رياضية أكثر من نظام عشري مبني على العد على أصابع اليد والقدم حتى لو كرس حياته كلها للبحوث الرياضية . وكذلك الحال بالنسبة للمصلحين الذين يحاولون إيجاد أنظمة جديدة لمجتمعهم فلا يسعهم إلا أن يبنوا أنظمتهم الجديدة وسط العناصر التي تعرفوا عليها ضمن ثقافتهم (لنتون : ص ٤٢١) . وهكذا فإن الثقافة التي يعمل في ظلها أي مخترع أو مبتكر توجه جهوده وتحدد إمكانياته وتقرر ما إذا كانت مخترعاته ستحظى بقبول المجتمع أم لا ؟ .

وهناك نقطة أخرى تتعلق بالتغير الثقافي هي ما يسمى بالامتصاص الثقافي أو التشرب الثقافي أو الاستعارة الثقافية . ويقصد بذلك قدرة أي ثقافة على امتصاص عناصر ثقافية مناسبة لها من ثقافة أخرى . ذلك أن النمو النسبي

السريع للثقافة البشرية ككل والثقافات الإقليمية أيضا بدرجات متفاوتة يؤدي إلى قدرة المجتمعات المختلفة على اقتباس العناصر المناسبة من الثقافات الأخرى ودمجها في ثقافتها الخاصة . ومع أن عملية الامتصاص الثقافي من ثقافة لأخرى تخضع لشروط تنظمها من أهمها مناسبة العناصر المستعارة فإنها تعتبر عملية هامة في نمو وتقدم أي ثقافة . ولو أن كل جماعة بشرية تركت وحدها لتسير قدما في تطورها بجهودها الخاصة دون مساعدة غيرها لكان تقدمها بطيئا جدا . وهكذا يصبح الاعتماد المتبادل للثقافات المختلفة عاملا هاما في تقدمها . ومن خلاله استطاعت البشرية أن تجمع قدراتها الإبداعية وأن تنهل من معينها المشترك. فعن طريق الامتصاص الثقافي أو الاستعارة الثقافية يمكن لاختراع ظهر في مجتمع ما وحظي بقبوله في عهد ما أن ينتقل إلى حلقة من الثقافات تظل تتسع وتنتشر حتى تعم البشرية في غضون بضعة قرون (لنتون : ص ٤٢٧) .

وفي المجتمعات المنعزلة أو المنغلقة على نفسها تكون قدرتها على النمو الثقافي محدودة جدا ، بل وقلما تهب عليها رياح التغيير . ويصبح مثل هذه المجتمعات أشبه ما يكون بأهل الكهف في سباتهم غارقون والعالم يتقدم ويتغير من حولهم . وهناك أمثلة كثيرة على مجتمعات تخلفت ثقافتها لانعزالها عن ركب الحضارة العالمية . ويمكن أن نضرب مثلا من تاريخ حضارتنا العربية .. فقد بلغت هذه الحضارة قمة مجدها بانفتاحها على الحضارات والثقافات الأخرى ، وكانت في حينها حضارة عالمية تشع بنورها في كل مكان في الشرق والغرب على السواء . ولكن عندما انقلبت الآية وانتهت الأمور بالعالم العربي إلى الانعزال والانغلاق في ظل الحكم التركي تجمد الفكر العربي ونضب معين الثقافة العربية ووصل العالم العربي إلى حالة من الركود الثقافي لايحسد عليها ومازال يعاني منها حتى الآن .

ومع نشاط الحركات الإصلاحية من داخل العالم العربي الذي تمثل أولا في الحركة السلفية التي قادها محمد بن عبد الوهاب في السعودية وتبعه آخرون مثل جمال الدين الأفغاني والشيخ الإمام محمد عبده والشيخ رفاعه الطهطاوي بدأ تجديد الفكر العربي الإسلامي ونفض غبار الماضي عن الثقافة الإسلامية .

وكانت الحملة الفرنسية على مصر بمثابة ناقوس الخطر الذي لفت الأنظار إلى الفجوة الحضارية الكبيرة التي تفصل بين العالم العربي الإسلامي وبين الحضارة

الغربية . ويقدم لنا الجبرتي في تاريخه المشهور أمثلة حية على ذلك . يصف الجبرتي حال المصريين عندما ضربهم الفرنسيون بالقنابل وكانوا لايعرفوا عنها شيئا آنذاك فيقول : " ولما نزل عليهم القنبل قالوا ياخفي الألطاف نجنا مما نخاف". ويصف الجبرتي أيضا دهشة علماء الأزهر عندما عرض عليهم علماء الحملة الفرنسية بعض التجارب العلمية البسيطة منهاتوصيل دائرة كهربية . لقد قدرت الفجوة الثقافية بين العالم العربي والإسلامي ، وبين أوربا في ذلك الحين بما يقرب من ستة قرون من الزمان استطاعت الثقافة الأوربية خلالها أن تحقق إنجازات كبيرة اتسمت بها عصور بأكملها مثل عصر الاكتشاف وعصر البخار وعصر الذرة . . وهكذا .

وعندما بدأت مصر ومعها العالم العربي تخرج من عزلتها الثقافية وتقيم جسورا ثقافية مع العالم المتقدم من حولها بدأت الحياة تتجدد في أوصالها وبدأت معها حركة التجديد الثقافي في العالم العربي الإسلامي . ومن العرض السابق نرى بوضوح أن أي انغلاق ثقافية أو عزلة ثقافية يعتبر بمثابة الحكم بالموت على أي ثقافة كما أنه يتجاهل الدور الحضاري الذي لعبته الثقافة الإسلامية في عصورها الذهبية .

ويعمل الاعتماد المتبادل للثقافات المختلفة من خلال عملية الامتصاص والانتشار الثقافي على تضافر الجهود في دفع حركة الثقافة العالمية إلى الأمام . فمما لاشك فيه أن زيادة عدد العقول المشتركة في معالجة إحدى المشكلات يسرع بعملية التقدم الثقافي . ولايمكننا أن نتجاهل الدور الهام الذي لعبته وسائل الاتصال السريعة في زيادة معدل الانتشار الثقافي بين مختلف دول العالم . وظهرت الأنظمة التي تحفظ للمخترعات سريتها مع نشرها على الملأ في نفس الوقت . وذلك من خلال نظام براءة الاختراع الذي يحفظ لصاحب الاختراع فضل السبق وكل حقوقه الأدبية والمادية . وهكذا نجد تزايد معدل الانتشار الثقافي بدرجة ملحوظة في كل الميادين الثقافية في كل المجتمعات المعاصرة . ويتابع كل فرد تقريبا على المستويات المهنية والفكرية والعلمية ما يحدث في مختلف دول العالم في ميدانه بصورة مستمرة كجزء لاينفصل من نموه المهني والثقافي .

ويستند الانتشارالثقافي على عدة أسس ومبادئ من أهمها عنصر الاحتكاك والوقت . فانتشار أي عنصر ثقافي من ثقافة لأخرى يتطلب احتكاك الثقافتين

ببعضهما ، كما يتطلب الوقت الذي يسمح بانتقال العنصر الثقافي من ثقافة لأخرى . ولكن ليس من الضروري أن ينتقل العنصر الثقافي من ثقافة لأخرى كما هو وإنما قد يطرأ عليه التعديل أو التحوير بما يتناسب مع متطلبات واحتياجات الثقافة الناقلة . وقد يتم الانتشار الثقافي من خلال الاحتكاك والوقت بطريقة طبيعية تلقائية دون فرض بالقوة من جانب سلطة خارجية أو داخلية كما حدث في اليابان مثلا في استعارتها لكثير من ثقافة الصين حتى الأبجدية استعارتها اليابان من الصين رغم اختلاف اللغتين . فكانت اليابان في يوم ما تعتبر امتدادا ثقافيا للصين .

وقد يحدث الانتشار الثقافي بالاحتكاك والوقت بفعل قوة خارجية مستوطنة. وفي هذه الحالة إذا تميزت هذه القوة الخارجية بالغلبة العددية والتفوق الثقافي فإنها تفرض ثقافتها على الثقافة المحلية . وهذا ما حدث في الدنيا الجديدة أعنى الأمريكيتين . إذ أن المهاجرين من البيض قد استطاعوا أن يفرضوا ثقافتهم تحت عنصر الاحتكاك والوقت وتوفر الغلبة العددية والتفوق الثقافي . وهذا ما حدث أيضا في استراليا ونيوزيلندا وغيرها من بقاع العالم ، حيث ذابت الثقافة المحلية في غمار وخضم الثقافة الوافدة . أما إذا كانت القوة الخارجية غير متوطنة أي أنها تقيم بصفة مؤقتة فإنها تستطيع أن تفرض بعض العناصر الثقافية على المجتمع . وقد يتشرب المجتمع بعضها بصفة دائمة إذا دخلت في نسيجه الثقافي . أما إذا اختزنها فقط في حوصلته فإنها تظل مرهونة بوجود هذه القوة ، فإذا اختفت أو انتفى وجودها استطاع المجتمع أن يطرد ما في حوصلته من عناصر ثقافية مفروضة لم يهضمها . وهذا ما حدث في البلاد المستعمرة التي يتوفر لها قاعدة ثقافية عريضة كما هو الحال في البلاد العربية مثلا .

وقد يحدث التغير الثقافي نتيجة لإضافة عناصر ثقافية جديدة أو مستحدثة سواء بالاختراع أو النقل من ثقافة لأخرى . كما أن التغير قد يحدث أيضا نتيجة ضمور أو اختفاء بعض العناصر الثقافية السائدة في يوم ما . فلبس الطربوش مثلا كان سائدا في بلادنا العربية في فترة من الزمن وارتبطت به صناعة كبيرة لعمل الطرابيش وصناعة أخرى لتنظيفه وكيه . وكانت المصانع والمحلات التي تهتم بهذه الصناعة منتشرة في كثير من الأمكنة حتى فترة قريبة . لكنها الآن تكاد تكون قد اختفت وقلما يعرف الجيل الجديد أو يتصور شيئا عن هذا الجانب

من الثقافة الذي كان سائدا في يوم ما في مجتمعه . ويمكن أن نضرب أمثلة أخرى لعناصر ثقافية اختفت أو تكاد تختفي منها " صناعة تبييض النحاس " . فقد اختفت نتيجة شيوع استخدام الأواني المصنوعة من الألومنيوم الذي لايحتاج إلى تبييض . وبالنسبة للدول العربية الخليجية نجد مثالا واضحا يتمثل في "صيد اللؤلؤ " . فقد اختفت هذه الصناعة تقريبا الآن . وكانت في يوم ما جزءا هاما من ثقافة المجتمع العربي في الخليج . وقد ساعد على ضمور هذا العنصر الثقافي في دول الخليج ظهور اللؤلؤ الصناعي الذي طورت اليابان تربيته واتخذته تجارة رابحة منافسة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان لظهور البترول أثر هام في اجتذاب كثير من الناس لتعيش حياة مستقرة بعيدة عن حياة البحر وما فيها من مخاطر واغتراب ومعاناة .

ويقول " رالف لنتون " إن التساؤل عن السبب الذي عمد الإنسان من أجله إلى توسيع محتوى ثقافته جيلا بعد جيل هو تساؤل لايزال بحاجة إلى إجابة شافية . وكل ما نستطيع قوله هو أن ذلك نتيجة لمايمكن أن يطلق عليه بعبارة غامضة «طاقة العقل البشري » التي لاتعرف الكلل أو الملل . ففي كل المجتمعات وعلى مر العصور المختلفة وجد أفراد لم يقتنعوا بالأمر الواقع ورفضوا التسليم بأنه " ليس في الإمكان أبدع مما كان " . وسعوا إلى إيجاد حلول جديدة لمشكلات سبق أن وجد الناس لها حلولا مقبولة . وهذا أمر يختلف كثيرا جدا عن البحث عن حلول للمشكلات الجديدة الملحة ، حيث يكون الحافز للعمل هو الحاجة. أما في الحالة السابقة فتستمر عملية الاختراع حتى عندما يكون دافع الحاجة غير موجود (لنتون : ص ١٢١) .

التربية والتغير الثقافي :

سبق أن ذكرنا أن التربية حالة ضرورية للاستمرار الثقافي . وهي أيضا وسيلة هامة للتعاون الواعي مع التغير الثقافي . وهكذا فإن إحدى الوسائل التي يتبعها المجتمع لمواجهة التغيرات هي أن يقوم بتعليم أجياله المتعاقبة التراث الثقافي من خلال مناهج المدرسة . وللوصول لهذه الغاية يعيد المعلمون تفسير المعرفة القديمة والقيم لمواجهة المواقف الجديدة . ومن أمثلة ذلك أننا منذ تحطيم الذرة لم نعد ندرس الطبيعة النيوتونية في صورة مجردة . وبالإضافة إلى ذلك أدخلت معرفة ومهارات جديدة إلى المنهج كما هجرت مهارات أخرى قديمة . ومثال

ذلك التخفف في المدرسة الغربية من دراسة اللاتينية واليونانية والاهتمام بالتدريب المهني لمواجهة طلب الصناعة المتزايد على العمال المهرة . واتجهت المدارس من خلال تركيزها على العلم الطبيعي إلى تشجيع الاتجاه الفكري والتجريبي . وقد تتجه الثقافة للتمهيد للمستقبل باكساب الشباب الاتجاهات والمهارات لمواجهة المواقف المتوقعة . ومهما اختلفت الأسباب المسئولة عن التغير الثقافي فإن التربية لها مسئولية كبيرة في إحداث هذا التغير . فعليها أن تقود هذا التغير وتوجهه . وبصرف النظر عما يقال من التقليل من أهمية الدور الذي تلعبه في هذا المجال فإن للتربية دورا لاينكر سواء من خلال غربلتها للثقافة أو تنميتها للاتجاهات الجديدة أو إحداث الحراك الاجتماعي أو دفع حركة التنمية الاجتماعية والاقتصادية . إن المجتمع المتعلم مرغوب فيه من جميع وجهات النظر. ويمكن للتربية من بين أدوارها الأخرى أن تقوم بتدريب القيادات في جميع ميادين الحياة حتى يصبحوا على وعي أفضل بالقوى المؤثرة التي تشكل تقدم ورفاهية المجتمع والثقافة هنا وهناك وفي كل مكان .

التربية والتغير الاجتماعي :

خضعت العلاقة بين التربية والتغير الاجتماعي لكثير من النقاش والجدل يحتدم حينا ويخف حينا . وقد اختلفت الآراء حول الدور الذي يمكن أن تسهم به التربية في التغير الاجتماعي . إحدى وجهات النظر تقول بأن التربية هي إحدى مؤسسات المجتمع التي تعكس قوته أو ضعفه وتقدمه أو تخلفه . فهي مرآة صادقة لأوضاع المجتمع . وإذا كان المثل يقول إن السائل من لون الإناء . فإن التربية في أي مجتمع لابد وأن تتلون أو تتشكل حسب أوضاع هذا المجتمع ودرجة تقدمه . ومن ثم فإن المدرسة تدور في فلك المجتمع ولاتستطيع أن تغيره . بل إن التربية ذاتها قد تقاوم التغير وتصبح هي نفسها حربا عليه . ذلك أن المؤسسات على اختلاف شاكلتها بما فيها التربية قد تكون شديدة المقاومة للتغير. والنظام التربوي كغيره من المؤسسات الهامة يتغير استجابة لتجديدات ثقافية كبرى . ذلك أن التغيرات المادية المقترنة بتقدم التكنولوجيا تقدر تقديرا عاليا من جانب المجتمع . ولكن الحيلولة دون استمرار النماذج القديمة أمر صعب . وهكذا يصبح استخدام الأفكار القديمة بطرق جديدة هو النتيجة المنطقية للتزاوج بين وجهات النظر المختلفة فيما يتعلق بالتجديد . وبهذا تكون عملية التجديد

محافظة مجددة معا .

إن التغيرات التي تحدث في بناء النظم التربوية تكون عادة نتيجة سلسلة من المؤثرات التي تعكس اجماع المجتمع على ما يجب أن تفعله المدارس . ويدخل التجديد في الصورة كأداة منطقية لإحداث التغييرات التي تساعد المدارس على تبنيها للمعرفة الجديدة التي تجدد الحياة فيها وفي أنشطتها وبرامجها .

إن المدارس ، بل والتربويين أنفسهم ، قد يجدون مبررات يقنعون بها أنفسهم ويحاولون أن يبرروا بها عدم تغيير أساليبهم التربوية حتى ولو كان التطور الاجتماعي يتطلب هذا التغيير . ذلك أن الميل إلى التمسك بالأهداف والممارسات القديمة دون تطوير يجعل المربي يواجه مشكلات خطيرة . وقد عرض هذه المسألة بحيوية أحد المربين هو H.Benjamine في كتابه Sabre Tooth Curriculum (١٩٣٩). ويعالج هذا الكتاب الساخر التاريخ التربوي لقبيلة أسطورية من سكان الكهوف كونت أغراضها التربوية عندما كانت النمور الضارية تشكل خطرا حقيقيا لها . ومن أجل هذا كانت مدارس القبيلة تعلم الوسائل الفنية لتخويف النمور وإبعادها وذلك بواسطة إشعال النار . وحدث فيما بعد أن تغيرت الأحوال الجوية المحلية ومالت إلى البرودة ، مما أدى إلى اختفاء الوحوش اختفاء تاما . إلا أن القبيلة لم تستمتع طويلا بأمنها الذي حصلت عليه حديثا . ذلك أن الدببة الكاسرة سرعان ما أزعجت الإقليم بكثرة ترددها . وسرعان ما تعلم الصيادون عمل الحفر التي يمكن أن تقع في شراكها الدببة المارة . ولكن منهج مدارس القبيلة ظل دون تغيير يركز على تعليم صيد النمور . وقد أوضح الصيادون للمربين أنه على الرغم من أن اصطياد الدببة وقتلها أصبح الآن من الأهمية بمكان لبقاء القبيلة ، فإن المدارس تجاهلت كل التجاهل المهارات وثيقة الصلة بهذه الحاجة . ودافع المربون بأن الطرق الفنية لمعالجة موضوع الدببة لاتنتمي إلى الميدان المدرسي لأن تعليم هذه المهارة العملية لايحظى بشرف الانتساب إلى التربية لأنه ليس إلا مجرد "تدريب" . وعندما اشتد الإلحاح في التساؤل عن سبب اهتمام الشخص بتعلم طريقة إفزاع النمور في الوقت الذي اختفت فيه جميع هذه الحيوانات منذ أمد بعيد أجاب أحد الرجال المسنين ممن كان لهم دور في إدارة النظام التعليمي قائلا :

« إننا لانعلم التلاميذ إفزاع النمور كهدف في ذاته ، بل نعلمه بقصد إكساب هذا النوع من الشجاعة الرفيعة التي تنسحب على جميع شئون الحياة .

والتي لايمكن أن تتحقق من القيام بنشاط حقير مثل صيد الدببة » .

هنا نجد تبريرا زائفا لعجز التربية عن مجاراة التقدم ومواجهة الاحتياجات الاجتماعية المتجددة باستمرار . ومازالت مثل هذه التبريرات تتردد على ألسنة بعض المربين المعاصرين للإبقاء على ممارسات درجوا عليها . وعليهم أن يتجاوزوها إلى ما هو أكثر مناسبة للمجتمع وتطوره . ومن الصعب إذن أن نتصور قدرة التربية على إحداث أي تغيير اجتماعي طالما أنها غير قادرة حتى على تطوير نفسها ، ناهيك عن تطوير المجتمع .

ووجهة النظر الثانية ترى أن التربية بحكم موقعها في المجتمع لها دور قيادي ، ومن ثم فإن عليها أن تقود التغير الاجتماعي وتوجهه . إن المدرسة من وجهة نظر الفلسفة التقدمية وغيرها جزء لايتجزأ من المجتمع ، فهي تعكس كل مشكلاته الاجتماعية . ويجب على المدرسة أن تقوم بدور فعال سواء في داخل الفصل أو خارجه من أجل تحسين المجتمع وتطويره . وعليها أيضا أن تواجه نفس المشكلات التي يواجهها المجتمع . وبعبارة أخرى فإن المدرسة ليست برجا عاجيا ، وإنما يجب أن تضطلع بدور نشيط في أمور المجتمع . إن كثير من المربين الذين يؤمنون بهذه النظرة يتفقون مع جورج كاونتس في تساؤله الذي جعله عنوانا لكتابه : هل تجرؤ المدرسة على بناء نظام اجتماعي جديد ؟ وكانت إجابته بالإيجاب . ذلك أن المربين التقدميين يرون أن المدرسة ينبغي أن تجرؤ ولو على نطاق محدود بالقيام بدور في بناء نظام اجتماعي جديد .

والواقع أن مدارس فلسفة التربية تختلف في نظرتها إلى هذا الدور الذي يمكن أن تقوم به المدرسة . وإذا كان التقدميون يرون أن للمدرسة دورا في التغير الاجتماعي فلأنهم يؤمنون بأن التغير دائم ومستمر . فالحياة كلها حركة وتغير ولاتثبت على وتيرة واحدة ، ومن ثم فإن التربية ينبغي أن تساير هذا التغير . وهذا يعني في معنى من المعاني أن تقوم المدرسة بالمراجعة الدائمة المستمرة لمناهجها وبرامجها وطرائقها وأساليبها . وهي بهذا التجديد الداخلي لها تستطيع أن تسهم في ركب الحياة ، وتتمشى معها ، أو على الأقل لاتتخلف عنها .

إن التربية يمكن أن تصلح من شأنها وشأن المجتمع . وذلك بتربية الأطفال على الاستجابة للتغير بوعي وذكاء . ويجب أن يدرس الأطفال ويعالجوا المواقف

النابعة من الحياة الواقعية ويكتشفوا بأنفسهم مشكلات حقيقية .

وهكذا يتكسبون الاتجاهات الفكرية والأساليب الفنية العملية المتنوعة التي تمكنهم من التعامل مع التغيرات . ونجد مثل هذه المواقف عند دراسة المشاكل المعاصرة بوجه عام من خلال العلوم الاجتماعية . ولايقدم التربوي التقدمي مقترحاته الشخصية لحل مشاكل الأطفال حتى يناقشوها ، ولكن يسمح لهم باستنتاج تلك الحلول وفقا لما لديهم من قيم .

ويرفض التربوي التقدمي أية مشروعات لاستخدام المدرسة لخدمة برامج الإصلاح الاجتماعي معتقدا أن مثل هذه الوظيفة المضافة للمدرسة تنتهك الحرية الفكرية للطفل . وبهذا تحد من نموه .كما أنه يعارض أي محاولة لتحديد ما يجب أن يكون عليه المجتمع الصالح على أساس أن المستقبل غير مضمون . كما يدعي أن فلسفته في التربية أكثر الفلسفات ديمقراطية ، ولهذا يؤيد المجتمع الذي يخطط ذاتيا وفقا لما نشأ عليه بدلا من المجتمع الذي يخطط له مسبقا . وتؤمن المدرسة التجديدية بأن المعلمين أنفسهم يجب أن يعيدوا بناء المجتمع من خلال تعليم الشباب برنامجا للإصلاح الاجتماعي الفوري الشامل والمفصل .

وعلى النقيض من هذه النظرة نجد مدرسة فلسفة تقليدية محافظة مثل التواترية ترى أن وظيفة المدرسة هي في جوهرها وظيفة محافظة تقوم على الحفاظ على أهم ما في التراث القومي ونقله . وهي بهذا تقف موقفا مخالفا للتقدمية من قضية التغير . فهي تؤمن بأن الحياة تتواتر ولاتتغير . كما أنها تؤمن أيضا بأن طبيعة الإنسان واحدة في كل زمان ومكان . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن التربية أيضا تتواتر ولا تتغير ، بل إنها واحدة لكل البشر على اختلاف العصور والمجتمعات . وهكذا تصبح هذه النظرة التقليدية محددة لدور المدرسة وهو دور يتصف بالثبوت وعدم التغير . إن المدرسة عند المربين المحافظين أو التقليديين لاتستطيع فرض سرعة معينة للتغير الاجتماعي دونما إفساد لوظيفتها الحقيقية وهي ممارسة الفكر . إن المدرسة ليست مجرد هيئة إصلاحية ولكنها منظمة تعليمية . ولما كان التحول الاجتماعي يتم على أيدي الأفراد وليس العكس ، فإن الطريق الحقيقي لإصلاح المجتمع هو تطوير أفراده .

ومن هذه النظرة نرى أن المدرسة تعنى بكل ما يستحق اهتمام الطالب في التراث الثقافي حتى يتكيف مع المجتمع . فإذا ما تحولت المدرسة لمشروع

إصلاحي ثقافي فإنها تعد الطالب للحياة في وسط لن يتحقق أبدا بدلا من تكييفه للظروف التي سيكسب عيشه في ظلها . زد على ذلك أن طالب المدرسة الثانوية يفتقر للتجربة أو الجدية التي تمكنه من تقدير مشاكل الإصلاح الاجتماعي والثقافي . كما أننا لانتوقع منه رأيا في المشاكل الثقافية المعاصرة طبقا لما لديه من قيم . كما أن جعل المدرسة هيئة إصلاحية قد يدفعها بين أيدي الجماعات المتنافسة ذات المصالح . وقد تنحدر المدرسة إلى ما يشبه الثقافة السياسية تحت الضغط المستمر لتقديم جميع الاتجاهات والبرامج السياسية التي يفسدها التعصب . بيد أن النظرة التواترية المحافظة والنظرة التقدمية والتجديدية المجددة يمكن أن تثير عدة نقاط تسهم في مناقشة دور المدرسة في التغير من أهمها :

أولا : أن المدرسة ، وإن كانت إحدى وظائفها الرئيسية المحافظة على التراث ونقله ، فإنها لاتنقل هذا التراث بطريقة تلقائية أو غير واعية . فالمدرسة لها دور في تنقية هذا التراث وغربلته . ومن خلال هذه العملية تستطيع المدرسة أن تسهم في التطور الثقافي للمجتمع .

ثانيا: أن المدرسة لاتكتفي بنقل التراث نقيا أو مغربلا ، وإنما تأخذ في اعتبارها التطورات الثقافية والفكرية والتعليمية والحضارية الهامة التي يشهدها العصر . ولايمكن للمدرسة أن تقف مكتوفة الأيدي أمام هذه التطورات . وإنما ينبغي أن تدخلها في حسابها وتأخذها في اعتبارها . إننا نعيش الآن عصر يوصف بأنه عصر العولمة والتفجر المعرفي وعصر علوم الحاسب الآلي وعلوم الفضاء وعلوم الأحياء وهندسة الجينات والوراثة . وهذه العلوم تفرض نفسها بإلحاح بدرجات متفاوتة على المجتمعات المعاصرة ، صغيرها وكبيرها ، غنيها وفقيرها على السواء . وكل النظم التعليمية في هذه البلاد لايمكن أن تتجاهل أهمية هذه العلوم ، وعليها أن تفسح لها مجالا في مناهجها وبرمجها التعليمية وإلا أصبح مثلها مثل النعامة التي تتوهم بأنها تدفع الخطر عن نفسها عندما تدفن رأسها في الرمال .

ثالثا: أن المدرسة ، بحكم ما لها من دور في تنمية المهارات العقلية والعلمية والعملية لدى الناشئة ، فإنها تهيء هؤلاء الناشئة وتعدهم للقيام بأدوار ووظائف في الحياة ما كان يتسنى لهم أن يقوموا بها بدون تعليمهم . وهذا يعني أن المدرسة من خلال هذه الوظيفة أو العملية تسهم في تحديد

الأوضاع الاجتماعية للفرد أو ما يسمى بالحراك الاجتماعي . ويقصد بالحراك الاجتماعي كما سبق أن أشرنا تحرك الأفراد صعودا وهبوطا على السلم الاجتماعي . ذلك أن التربية والتعليم يزيدان من قيمة الفرد الاجتماعية والاقتصادية . والعكس صحيح . والحراك الاجتماعي أشبه ما يكون بتيارات " الحمل " في الماء التي تكون في حركة صعود وهبوط. وفي حركة الصعود يرتفع معها أناس ، وفي حركة الهبوط ينخفض معها آخرون . وهكذا تصبح التربية عاملا هاما في التقدم الاجتماعي للفرد . وهي وظيفة تجديدية تستطيع التربية أو المدرسة من خلالها أن تسهم بصورة مباشرة في التغير الاجتماعي في شكل المجتمع وتركيبه .